الفصل الثاني

مفاهيم أساسية

Yin و Yang:

ليس هناك أيّة واقعة في العالم لم يُكسِبها الصينيون جانب Yin وجانب Yang. وقد جاء في Yijing، «كتاب التحوّلات»، الكتاب الأساسي لكل الفكر الصيني: «تارةً Yin، وتارةً Yang، ذاك هو Tao!». كما أن «المقالة الواسعة حول الظواهر المطابقة لـ Yin وYang، أحد أهم النصوص النظرية في الطب الصيني الكلاسيكي[1]، تبدأ بشكل ليس أقلّ التباساً وغموضاً على الأذن الغربية:

تكلّم الأمير الأصغر: «Yin وYang هو Tao السماء والأرض ومبدأ الجوهر الأعلى، أمّ وأب التغيّر والتحوّل، أصل وبداية النشوء والفناء، قاعة القوّة المتكوكِبة المتمظهِرة».

Tao هو أسلوب الفاعليّة، الدرب الذي يسلكه كل حدث في الزمان والمكان. وتعني Yin وYang شيئاً مثل «توزيع القوى»، «توازن القوى»، «تكوكب القوى»، ولكنها تعني أيضاً «الطاقة القطبية» أو «الطاقة المستقطبة»؛ ولما كان كل حدث بالنسبة للصينيين حدثاً طاقويّاً، فإنها تعني أيضاً ببساطة «القطبية». وبذلك يمكننا وضع العبارة المنقولة عن Yijing في صيغة مألوفة تنتزع منها جزءاً مهمّاً من غموضها: يتحدّد سير الأحداث من خلال تكوكب القوى السائد في كل حالة. أو يمكن القول: سائر الأحداث هي تأثيرات للتكوكب الطاقوي في كل حالة. أما Yin وYang فهما تسميتان عالميتان للجوانب الطاقوية للتأثيرات: ومن جهةٍ أخرى لا يمكن إحداث التأثيرات وإدراكها إلاّ عندما تتلاقى قوّة ما (أو جانب طاقوي فاعل آخر) مع موقع تأثير (مادّي) وتتمكّن هنا من إحداث التغيير. فشعاع شمسي أو حجر نيزكي ليس لهما أيّ تأثير طالما هما يطوفان في الكون دون عائق.

[1] وهذا النص عبارة عن الفصل الخامس من، «الأسئلة الأساسية في المؤلَّف الكلاسيكي الداخلي للأمير الأصفر».

فقط عندما يسقطان في مكانٍ ما، فإنهما يُحدثان شيئاً ما. بيد أن تأثيرهما يختلف تبعاً لمكان سقوطهما. فأشعّة الشمس مثلاً بإمكانها إحداث أشياء مختلفة مثل التركيب الضوئي في النباتات، تبخّر المياه، تسخين سقف من الصفيح، احمرار (أو حتّى حرق) الجلد أو إبهار العينين. ولما كانت الجوانب الطاقوية الفاعلة لضوء الشمس هي ذاتها في كل حالة، فإن توليدها لتأثيرات متباينة لا يمكن أن يتوقّف عليها وحدها. وإنما يتوقّف الأمر على الكيفيات المختلفة لمواقع التأثير المتلقّية. ومواقع التأثير هذه مادّية ومبنية بطريقة متباينة - وهذا الأمر متجذّر وراسخ في وعي الصينيين.

تبعاً لذلك فإن كل حدث أو واقعة تُفهَم في التفكير الصيني على أنها تضافر تأثير طاقة فاعلة وطاقة بنائية ذات كيفية متباينة في كل حالة. وعلى عكس التفكير السببي في الغرب، والذي يُعتقَد فيه أن كل تأثير هو نتيجة لسببٍ سابق زمنيّاً، يرى الصينيون في التأثير المجرى الديناميكي لدى تضافر متزامن لقوىً فاعلة وبنائية. حيث تُدعى كل الجوانب الفاعلة بـ Yang وكل الجوانب البنائية بـ Yin. ويتّضح من ذلك مفهوم الصينيين بأن النظام العالمي يقوم على لعبة تبادل بين مجموعتين من الجوانب الطاقوية، متعاكستين ولكن متكاملتين. والظواهر التي تُعتَبر بصفة عامّة، حسب تجربة وخبرات الغرب، مواضيع أو أشياء، هي في النظرة الصينية عبارة عن نتيجة لسلسلة من التأثيرات في الماضي؛ فهي تأثيرات متراكمة في الماضي ومُستأنفة أو مُعاد إليها في الحاضر. كل ما هو مادّي، وبالتالي الجسد البشري أيضاً، هو حصيلة وتعبير عن تأثيرات نوعية تماماً متراكمة في الماضي، وينشأ، مثله مثل طبيعة جغرافية أو مبنىً ما، من خلال قوى متنوّعة وذات كيفية محدَّدة وفعّالة طوال أزمنة ماضية. فالصحارى هي حصيلة «عملية تصحّر» تدوم طويلاً، والتغيّرات الجسدية هي حصيلة أخطاء وظيفية تستمر طويلاً.

المعايير العرفية الكيفية:

بوصفهما المعيارين العرفيين الأكثر عموميةً، واللذين يتم بهما الفصل الكيفي للجوانب التشخيصية للقوى المؤثرة عن بعضها بعضاً، أي تعريفهما تبعاً لاتّجاهاتها، يخدم كل من Yin وYang في توصيف الحدثيات التجريبية.

كان Yin وYang في العصر القديم تسميتين لكل من الجهة (الشمالية) المظلّلة (Yin) والجهة (الجنوبية) المشمسة (Yang) لجبل ما، للجهة الجنوبية

(المظلّلة) لضفّة نهر ما (Yin) أو بالأحرى الجهة الشمالية (Yang)، لأوقات السنة الداكنة المكفهرّة، أي الخريف والشتاء (Yin) ولأوقاتها المنيرة الساطعة، أي الربيع والصيف (Yang).

على أن Yin وYang، مثل كافة المعايير العرفية الأخرى في الصينية (ومثل مفاهيم السبب والتأثير أو العلّة والمعلول في الغرب أيضاً) ليسا مفهومين تجريبيين. وبالتالي فهما ليسا حتّى توصيفاً للحقيقة أيضاً. بل الأرجح أنهما يوافقان أداتين لغويتين تضيفان على التوصيفات التجريبية دقّة ووضوحاً.

مبدئياً يمكننا القول: Yang هو الجانب الفاعل من التأثير، Yin هو التوجيه البنائي المعاكس الذي يمكن أن يكون متبايناً تبعاً لموقع التأثير المادّي. حيث يتضمّن الفاعل في معنى Yang كافة حيثيات الشروع، التفكيك، المحرِّك والمحرَّك، المحوِّل، المكتشِّف والمنتشر، المفكِّك، المبدِّد والمبعثِر، المعيِّن، وفي الوقت نفسه غير المتعيِّن. وعلى العكس، يشمل البنائي في معنى Yin كافة حيثيات الإتمام، التأكيد، الاستقرار، الساكن، التعيّن، الثبات، الجمود والموت، التكاثف، التركيز والمتعيِّن.

ويغدو الادّعاء المتناقض لأوّل وهلة أكثر وضوحاً الآن، صحيح أن Yang معيِّن، ولكنه نفسه غير متعيِّن. لنعد ثانيةً إلى مثال أشعّة الشمس. فطالما تنتشر أشعّة الشمس في الفضاء دون عائق، فإنه من غير المحدَّد إطلاقاً (وهذا يعني عدم تمكّن المرء بعد، ومن خلال ملاحظات تجريبية متأنية من إثبات) ما إذا كانت ستؤدي فيما بعد إلى تبخّر المياه، نموّ النباتات أو جعل القمر نيّراً، ما إذا كانت ستتلف صورة فوتوغرافية أم ستحدث حرقاً شمسياً. ولا يمكن معرفة ذلك إلاّ عندما تسقط على مكانٍ ما، حيث تُحدث، بالاشتراك مع الطاقة البنائية، تأثيراتٍ محدَّدة. غير أنها، وبوصفها الجزء الفاعل من الحدثية، تُعتبر محدِّدة بالنسبة لهذه التأثيرات.

والآن بتنا قادرين على صياغة أكثر وضوحاً لذلك الإثبات الذي ينمّ عن الغموض والإبهام، والمنقول عن الأمير الأصفر في «المقالة الواسعة حول الظواهر المطابقة لـ Yin وYang»: يحدّد كل من Yin البنائي وYang الفاعل طريقة تأثير وفعالية عالم منظَّم. وتمتلك جميع الظواهر المفردة قابليتها للتعيين في تضافرها القطبي المعاكس: فكل من التغيّر العابر والتحوّل الجوهري العميق تُحدثه الفاعلية - أي Yang-. ويتم إيصالها إلى الصورة المعيّنة الملموسة عن طريق البنائية - أي عن

طريق Yin-. فلكل نشوء وفناء أصله وبدايته في هذه القطبية. وتبدو القوّة المكوكبة(وهي القوّة المحدِّدة والمنظِّمة لتلاقي الأحداث) وتظاهرها قابلين للاختبار والتوصيف على ضوء وجهة نظر هاتين الكيفيتين الأساسيتين فقط دون غيرهما.

الشكل رقم (1):

الأجزاء المنقّطة من الصور تميّز Yang، الفاعلية، الجوانب الفاعلة من التأثير. والأجزاء المتبقية جميعها تميّز Yin، البنائية، الجوانب البنائية من التأثير.

يبيّن الرسم (1) الفاعلية بالمطلق، والتي لا يمكن التعرّف على هدفها. كما لا يمكن للمشاهد التعرّف على أيّة معطيات قياسية أو حدود أو مدى فعل ما، أو استنباطها.

يبيّن الرسم (2) البنائي، البنائية، التأثير المتراكم في الماضي. مثل هذا التأثير قابل للتحديد الكمّي، قابل للقياس. ولكن إذا نُظِر إليه معزولاً، فإنه لا يوضّح أيّ اتّجاه، أي كيفيّة صريحة، أي مرجعية للفعالية.

في الرسم (3) نرى التأثير المتبادل بين الفاعلية والبنائية. فالبنائي هو أساس الفعل، شرطه، قاعدته، موضوعه، وهو في الوقت نفسه المقاومة التي يبديها التأثير المتراكم في الماضي تجاه المؤثر الحاضر الحالي. والماضي يتبدّل، يتحوّل من خلال الفعل الحاضر.

وفي الرسم (4) تتواصل العلاقات المشار إليها في الرسم (3): الفاعل، الفعل، Yang يتبدّل، يضرّ بـ، يدمّر ما هو قائم، ما هو متراكم في الماضي، ما هو صائر، ما هو متكوِّن، فالفعل يقيم بالتعريف تحوّلاً، هو تحوّل.

الرسم (5): ولكن بإمكان الفعل، عندما يقتصر على مقادير صغيرة من التأثير المتراكم في الماضي، أن يبدّد هذه التأثيرات كلّيّاً، يدمّرها، يزيلها. في مثل هذه الحالة يمكن أن يتظاهر الفعل كتدمير، استهلاك، إبادة، وهو ما يظهر في الرسم (6).

كل من الرسوم الأربعة الأخيرة، يوضّح وجوب فهم الفعل والبناء، الفاعلية والبنائية، دوماً على أنها جانبا كل حقيقة، المشترطان بعضهما بعضاً والقابلان للفصل ذهنيّاً فقط وليس تجريبيّاً: فالفعل لا يُختبر إلاّ عندما يقع على ركيزةٍ ما، على البنائي، على الملموس، على المادّي، وعلى العكس، يشترك اختبار البنائي، المادّي، أن يقع عليه تأثير راهن، فعلي، حاضر، أي فاعلية، وأن يتشوّه من خلاله أو يُعطى شكلاً.

1

2

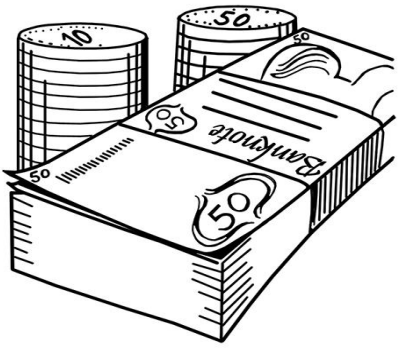

3

4

5

6

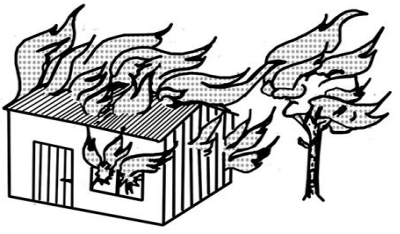

مطابقات:

تسود أفكار الدينامية والفعالية الفكر الصيني بأسره. وهو يتحرّك في عالمٍ من الرموز، من المطابقات والأضداد. ويقوم الصينيون بإلحاق عدد كبير من الظواهر القطبية، كمطابقات أولية وثانوية، بكل من Yin وYang، بوصفهما المعيارين العرفيين الأكثر عمومية. وإذا أردنا التفصيل فإن كلاً مما يلي يتحدّد على أنه من ظواهر (Yang) الفاعلة: السماء، الشمس، الربيع، الصيف، الذكري، الحرارة والسخونة، الخارجي، المضيء، الكبير والقوي، الأعلى، النار، المتحرِّك، النهار، الأيسر. وبالمقابل يوصف الصينيون ما يلي كظواهر (Yin) بنائية: الأرض، القمر، الخريف والشتاء، الأنثوي، البارد والحار، الداخلي، المظلم، الضعيف والصغير، الأسفل، الماء والمطر، الساكن، الليل، الأيمن.

عدا ذلك فإن كلاً من المطابقات التالية تعتبر ذات أهمية في سياق نظرية الطب.

كل ما يلي يعتبر ظواهر (Yang) فاعلة: الفترة الممتدّة من منتصف الليل إلى منتصف النهار، الواقع على السطح والدافع على السطح، الظَّهر، الجذع فوق الحجاب الحاجز، الدارات الخارجية أو دارات العبور، طورا التحوّل - الخشب والنار، القوّة المكوكِبة shen، الطاقة الفردية النوعية الفاعلة qi، طاقة الدفاع wei، العصارات الفاعلة jin، امتلاء الطاقة shi (باللاتينية: repletio)، الرائق، القاسي، ما لا طعم له، ذو العدد الفردي.

وبالمقابل يعتبر الصينيون كل ما يلي ظواهر (Yin) بنائية الفترة الممتدّة من منتصف النهار إلى منتصف الليل، كل ما يفعل في العمق، المنخفض، البطن، طوري التحوّل - المعدن والماء، الطاقة البنائية الكامنة jing، الطاقة الفردية النوعية البنائية xue، طاقة البناء Ying، العصارات البنائية ye، استنفاد الطاقة xu (باللاتينية: inanitas)، العكِر، الطري، المالح، ذا العدد الزوجي.

هنا يظهر عدد كبير من المفاهيم الجديدة التي سيجري توضيحها لاحقاً بصورةٍ أدق. وقبل كل شيء تُذكر أشكال مختلفة من الطاقة لأوّل مرّة. مع ذلك، وقبل أن نتناول أطوار التحوّل الخمسة بوصفها المعايير العرفية الأساسية الأخرى في الفكر الصيني، وبالتالي في الطب أيضاً، ثمّة ملحوظة أخرى على Yin وYang. لقد كان بديهيّاً لدى الصينيين أنه في كل ظاهرة Yin وفي كل ظاهرة Yang لا بد من التمييز بين جانب -Yin وجانب -Yang. جاء مثلاً في Suwen ثمّة Yang في Yin،

وثمّة Yin في Yang. وهكذا فالفترة الممتدّة من شروق الشمس إلى منصف النهار تطابق Yang السماء (وهذا يعني Yang النهار) وفي الوقت نفسه Yang في Yang، وصحيح أن الفترة الممتدّة من منتصف النهار إلى غروب الشمس تطابق Yang السماء، ولكنها تطابق Yin في Yang (لأن فترة ميلان الشمس نحو الغروب هي Yin)؛ والفترة الممتدّة من هبوط الليل إلى أوّل صياح الديك (وهذا يعني منتصف الليل) تطابق Yin السماء وYin في Yin. والفترة الممتدّة من أوّل صياح الديك إلى طلوع الشمس، صحيح أنها تطابق Yin السماء، ولكنها تطابق Yang في Yin».

أطوار التحوّل الخمسة

(باللاتينية: quinque transvectus؛ **بالصينية:** wuxing**):**

كان العالم اللغوي وورف قد أثبت بأسلوبه الجامح أن: «كيفية تصنيفنا للطبيعة، تنظيمنا لها في مفاهيم تُضفي عليها المعاني والدلالات، لهو أمر يتحدَّد إلى حدّ بعيد بكوننا مشاركين في اتّفاقية لتنظيمها على هذا النحو - اتّفاقية يسري مفعولها على جماعتنا اللغوية بكاملها، ومشفَّرة في بُنى لغتنا. وبالطبع ليست هذه الاتّفاقية سوى اتّفاق ضمني كامن، ولكن محتواه إلزاميّ بصورة مطلقة؛ فنحن لا يمكننا الكلام إطلاقاً دون الخضوع لترتيب وتصنيف ما هو مُعطى، ترتيب وتصنيف يفرضهما هذا الاتّفاق»[1].

ولقد أثبتنا سابقاً أن الصينيين مشتركون في اتّفاقٍ لغوي مغاير كلّيّاً لاتّفاق الأمريكيين والأوروبيين. والطب الصيني منظومة علمية غير ممكنة دون الخصوصيات اللغوية للصينيين. وتقديم هذه المنظومة في لغةٍ أخرى، دون الخروج المستمر عن النظام اللغوي للصينيين، أمر شبه مستحيل. إلاّ أن الصينيين أنفسهم قدّموا البرهان على إمكانية ذلك، رغم كل الصعوبات: أجل، قد تبنّوا التفكير التحليلي-السببي للغرب. وعلى العكس، عندما لا ننجح نحن في التعلّم من الصينيين والاستفادة منهم، فإن الغرب سرعان ما يدخل في حالةٍ متأخّرة مقارنةً مع الصينيين.

لقد تعرّفنا في الثنائية القطبية Yin وYang، أو البنائية والفاعلية، على واحدٍ مما يُسمَّى معايير الاستقطاب، والذي يقيِّم به الصينيون مبدئيّاً كافة الوقائع، كافة الحدثيات والمجريات في العالم الحيّ وغير الحيّ؛ ويمكننا القول أيضاً: إنه

[1] وورف، مرجع سابق، ص 1.

زوج من المعايير الرئيسة، يقسِّم الصينيون العالَم تبعاً له إلى مفاهيم، ويحدِّد أيّ جزء من الحقيقة ينبغي أن يُعزى إلى الكلمة كمعنى لها.

لنأخذ الصيد كمثالٍ من الفعل البشري، يُفترض به توضيح الفكر الصيني. والصيد حدثية لدى كل منّا تصوّر عنها، ولكن من غير الثابت كيف نقوم بتحليلها مفهوميّاً إلى مقاطع جزئية. وفقاً للرؤية الصينية يُعزى للصيد، مثله مثل كل فعل، جانب فاعل وجانب بنائي، وبإمكان المرء التمييز بين مرحلة Yang ومرحلة Yin. يبدأ Yang الصيد مع اقتفاء أثر الأيل واكتشافه، ويصل إلى ذروته مع طلقة الصياد. وعندما يدرك سهم القوس أو رصاصة البندقية الهدف وينفذ إلى قلب الحيوان تدخل المرحلة الفاعلة - وبسرعة نوعاً ما في هذه الحالة - في مقطع Yin البنائي من الصيد. ينزف الأيل وفي النهاية يموت؛ فتبدأ مرحلة البنائية التي تدفع إلى إمكانيات جديدة، وتبعث على فاعليات جديدة. ولكن قبل ذلك يحتاج الأمر إلى مرحلة ما يُسمَّى «تبديل الأقطاب»: إذ يتوجّب على الصياد تنحية قوسه والإمساك بالسكين لشقّ الحيوان. وتنتهي مرحلة Yang هذه إلى مرحلة جديدة Yin في أبعد الحدود عندما يتحوّل الأيل بكامله إلى طعامٍ بشري، ويتوالى الأمر على هذا المنوال.

كل مرحلة محدودة ومنفصلة على هذا النحو يمكن للمرء تقييمها تبعاً لـ Yin وYang، وهكذا سيوصف تحضير السلاح للإطلاق مثلاً، أي شدّ القوس ووضع السهم على أنه Yang في Yin، أما الفترة الممتدّة من تحرير الطلقة حتّى إصابة السهم للهدف فتوصف بأنها Yang القوي؛ ويمكن اعتبار نفوذ السهم في قلب الأيل، والذي يتم خلاله امتصاص الطاقة الفاعلة، Yin في Yang، وموت الأيل المطروح هناك Yin القوي. بإمكان المرء مبدئيّاً تقييم كل مرحلة من مراحل واقعةٍ ما من جديد ليتوصّل إلى تقييمٍ متمايز بقدر ما يشاء للحدثيات.

قد يبدو ذلك للوهلة الأولى مبلبلاً. ولكن التفكير التحليلي- السببي يعمل بصورةٍ مشابهة تماماً دون شعورٍ منّا. على سبيل المثال كانت برقية إيمز سبب حرب عام 1870 بين فرنسا وبروسيا. ولكن المؤرّخين يذكرون وقائع مختلفة تماماً لكل معركة على حدة في هذه الحرب، ووقائع أخرى أيضاً بالنسبة لانطلاق الاشتباكات المفردة ...إلخ، إلى أن يصل المرء إلى السؤال عن أسباب موت كل ضابط أو جندي على حدة، والتي لا تعود تهم أصلاً سوى المعنيين تحديداً.

إلى جانب المفهوم الثنائي للفاعلية والبنائية (أو Yang وYin) فإن لدى الصينيين معايير استقطاب أخرى تلعب في التنظيم المفهومي للمحيط وفي تقييمه دوراً

ليس أقلّ أهمية: الكمونية والفعلية، وكذلك التمايز الكيفي والوحدة الحيادية غير المتمايزة.

ويمكن مشاركة معايير الاستقطاب هذه مع بعضها بعضاً، مما يتيح تقييمات معيارية عرفية جديدة يجنِّدها الصينيون قبل كل شيء لتقييم المجريات الدائروية: أطوال التحوّل الخمسة (wuxing).

وينجم عن مشاركة الكمونية والفعلية مرحلة الفاعلية الكامنة. ويدعوها الصينيون بـ طور التحوّل - الخشب. وهي في حالة الصيد تلك اللحظة التي يتم فيها شدّ القوس ووضع السهم، إلاّ أن الإطلاق لم يتم بعد. وفي حالة قيادة السيارة مثلاً: خزان الوقود ممتلئ، والبطارية مشحونة؛ مفتاح التشغيل في مكانه، ولكن لم يتم تدوير المحرك بعد. إذن فطور التحوّل - الخشب يصف إمكانية وشرط مرحلةٍ أخرى، ألا وهي الفاعلية الفعلية. وتسميتها لغة الصينيين المليئة بالرموز طور التحوّل - النار. وهي في حالة الصيد ذلك الزمن القصير لطيران السهم باتجاه الهدف، وفي حالة قيادة السيارة أجزاء الرحلة التي هي عادةً أطول زمناً بكثير.

أما مراحل التأثير المرسومة التي لم تدخل بعد فتُعتبر بنائية كامنة. فالسهم أصاب هدفه ولكن الأيل ما زال يقفز؛ السائق يدوس على الفرملة ولكن الفرامل لم تستجب بعد. ويصف الصينيون ذلك بأنه طور التحوّل - المعدن.

وأخيراً هناك المشاركة بين الفعلية والبنائية، والتي ينجم عنها مرحلة البنائية الفعلية التي يدعوها الصينيون بـ طور التحوّل - الماء. ذلك هو الأيل الميت في حالة الصيد أو السائق عند هدفه.

أطوار التحوّل الأربعة هذه متمايزة أيضاً في مشاركتها معياري الاستقطاب كليهما. ولكن الصينيين يميّزون إلى جانب ذلك طوراً آخر للانتقال، للمعاوضة، لتبديل الأقطاب أو لقلب التوجيه، دون معرفة مُسبقة بالطور المحدَّد الذي يتبع ذلك. ففي حالة الصيد مثلاً، هو ذلك الطور عندما يراقب الصياد بالمنظار ليتبيّن طريدة جديدة، أو عندما يضع قوسه جانباً ويقبض على السكين لينظِّف أحشاء الحيوان المقتول. ويصف الصينيون مثل هذه المراحل الانقلابية، الانتقالات من حدث إلى آخر، بأنها طور التحوّل - الأرض.

هنا، في هذا الموضع بصفة خاصّة، يتّضح كيف يمكن أن يتم تقويض فهم وتفهّم العلم الصيني من خلال ترجمات خاطئة ومضلِّلة. فبالعودة إلى ترجمات المبشِّرين الأوروبيين من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر نجد أن الكلام

في الأدب المتعلّق بالموضوع كثيراً ما يدور حول «مبحث العناصر الخمسة».

وفي مثل هذا المفهوم يجتمع العديد من الأخطاء الخطيرة؛ فعبارة «عنصر» قبل كل شيء، والمختارة بإيحاء من مبحث العناصر الإغريقي، تثير حتّى لدى خبراء الفلسفة الإغريقية الكلاسيكية تداعياتٍ خاطئة. والعنصر الإغريقي يمتلك موقعاً متوسّطاً بين المعنيين المادّي والوظيفي.

حتى عندما يتكلّم المرء عن«مبحث العناصر الخمسة»، فإنه يخلط بين الوسيلة والغاية أو بين الوسيلة والمقولة- تماماً كما لو أن المرء يصف الفيزياء الكلاسيكية بالإجمال بأنها «مبحث المنظومة المادّية»، وذلك فقط لأن معظم الفيزيائيين عبّروا عن نتائج ملاحظاتهم بالاستناد إلى المعايير العرفية لهذه المنظومة المادّية.

وهكذا فلا شيء يجيز لنا نقل المفهوم الصيني xing، والذي يعني حرفيّاً **ممرّاً أو معبراً** (باللاتينية: transvectus)، لغويّاً على أنه عنصر. فإن xing هو دوماً عبارة عن حدثية دينامية «عابرة» تنتهي بحلول حدثية أخرى محلّها. وهذا الحال أو المعنى يؤدّيه مفهوم طور التحوّل على خير وجه.

ولكن مبحث أطوار التحوّل الخمسة لا يقتصر على التوصيفات المعيارية - العرفية للحديثات كل على حدة. فقد اكتشف الصينيون سلسلة من الانتظامات لدى تعاقب أطوار التحوّل المفردة تصلح للتوصيف المنهجي للمجريات الطاقوية. فالقوس يجب أن تكون مشدودة قبل أن يكون في وسع الصياد إطلاق السهم، وخزان وقود السيارة يجب أن يكون مملوءاً بالبنزين قبل أن يكون بإمكان السائق الانطلاق بها. وبتعبير آخر: لا بد لطور الفاعلية الكامنة أن يسبق عادةً طور الفاعلية الفعلية؛ وبمصطلحات أطوار التحوّل لا بد لطور التحوّل - الخشب أن يسبق طور التحوّل - النار. إذ إنه دون أطوارٍ يتمّ فيها تجميع وتخزين كاف للطاقة لا يمكن أن تسير الحدثيات ذات الفاعلية العالية.

من الناحية النظرية يمكن ترتيب أطوار التحوّل الخمسة في 36 تعاقباً أو تسلسلاً مختلفاً (بالصينية: xu). ولكن ثلاثة منها فقط اكتسبت الأهمية في الطب الصيني، ذلك أن قيمتها العملية تأكّدت عن طريق الخبرة مراراً وتكراراً. ويمكن فهم الحدثيات البيولوجية في الإنسان أيضاً - مثلها مثل سائر الحدثيات الكونية - على أنها تضافر أو أداء جماعي للدافع الفاعل (Yang) والتوجيه البنائي المعاكس (Yin). حيث يعمل الدافع الفاعل طبقاً لتسلسل التمخّض أو الإنتاج (باللاتينية sequentia efficiens؛ بالصينية: xiangshengxu). وهو ينصّ على أن: طور التحوّل -

الخشب يولّد طور التحوّل - النار؛ وهذا يولّد طور التحوّل - الأرض؛ وهذا يولّد طور التحوّل - المعدن؛ وهذا يولد طور التحوّل - الماء؛ وهذا الأخير يولّد من جديد طور التحوّل - الخشب. ويمكن تمثيل ذلك تخطيطياً على أحسن وجه على شكل دائرة:

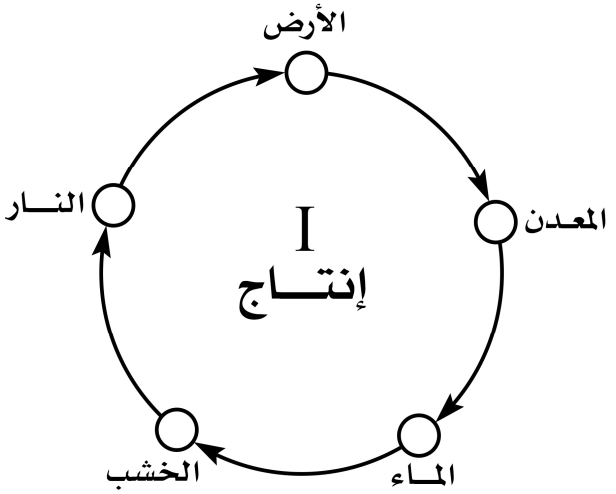

وتختبر الأطوار الفاعلة توجيهها البنائي المعاكس طبقاً لتسلسل القمع أو تسلسل الكبح (باللاتينية: sequentia vincens sive cohibens؛ بالصينية: xiangkexu, xiangshengxu) والذي يثبت أن طور التحوّل - الخشب يكبح طور التحوّل - الأرض؛ وهذا يكبح طور التحوّل - الماء؛ وهذا يكبح طور التحوّل - النار؛ وهذا يكبح طور التحوّل - المعدن؛ وهذا يكبح من جديد طور التحوّل - الخشب. وينجم عن ذلك الصورة التالية:

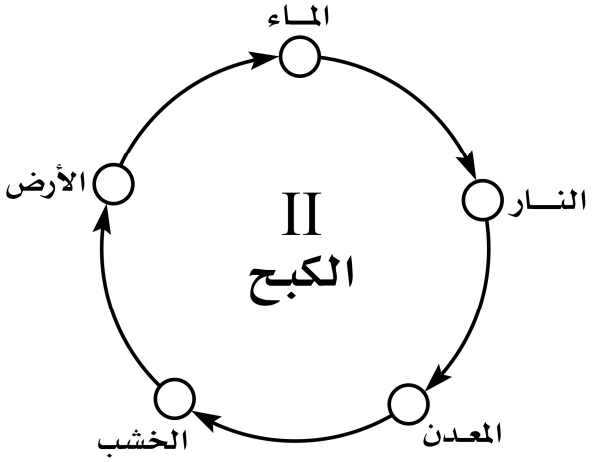

ويقصد الطب الصيني بلعبة القوى انطلاقاً من الإنتاج والكبح تلك الحدثيات الفيزيولوجية التي تشكّل أساس كافة الوظائف الصحّيّة السليمة. وعندما تضطرب لعبة القوى هذه، جراء عوامل ممرِضة ما، يحصل أو ما يحصل ركودات واحتقانات بالطاقة في بعض الأمكنة، ونقص في الطاقة في أمكنة أخرى. وهذا يقود في نهاية الأمر إلى اضطرابات في علاقة الأطوار الفيزيولوجية. حيث تطغى على كيفيات الأطوار ذات الكمون الطاقوي غير الكافي أطوارُ التحوّل التي يُفترض أنها لن تكبحها في الواقع. ويدعو الصينيون هذا التسلسل الباتولوجي بتسلسل القهر أو التغلّب (باللاتينية: sequentia violationis؛ بالصينية: xiangwuxu)؛ وهو ينص على أن: طور التحوّل - الخشب يتغلّب على طور التحوّل - المعدن؛ وهذا يتغلّب على طور التحوّل - النار؛ وهذا يتغلّب على طور التحوّل - الماء؛ وهذا يتغلّب على طور التحوّل - الأرض؛ وهذا الأخير يتغلّب من جديد على طور التحوّل - الخشب. ويبدو الرسم التخطيطي الموافق كما يلي:

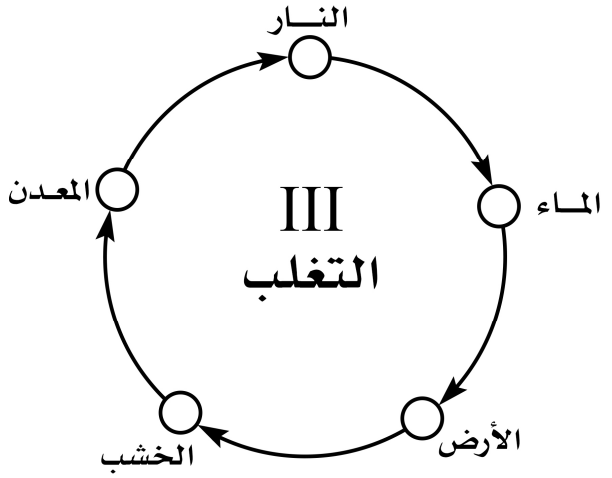

عندما يشخّص طبيب صيني اضطراباً في لعبة القوى الطاقوية، يمكنه بناءً على معارفه بالحدثيات الباتولوجية طبقاً لتسلسل التغلّب وضع إنذار دقيق جدّاً حول سير المرض. ولكنه يعرف أيضاً بأية أدوية أو إمكانيات علاجية أخرى يمكنه تصحيح التوازن الطاقوي المضطرب وبالتالي استرداد صحّة وعافية المريض.